الفصل التاسع عشر

لابد من التنبيه إلى .. السلبيات والإيجابيات

إن فيما أحسب أن أختم هذه الدراسة - وهى لم تطل - ولكننى قلت فيما أرى الكفاية ، وأنا شخصياً وأنا أقرأ تفاصيل خلافة المنتصر بعد اشتراكه فى قتل أبيه أشعر بأن الرجل أصيب باكتئاب ، وهذا طبيعى ؛ فإن قتل الإنسان لأبيه أو اشتراكه فيه أمر لابد أن يصاب نتيجة له بشىء نفسى ؛ ولهذا فأنا أحب أن أوفر على القراء عناء الاستمرار فى هذه الدراسة ، ويكفى أن القارئ عرف ما نريد أن نقوله منذ البداية ، وهو أن تاريخ المسلمين من أيام عثمان لم يعد تاريخاً سارًا أو جميلاً . حقّاً كانت فيه فتوحات وانتصارات ، ولكن الخلافة نفسها أصبحت أمراً لا يسر . فقد عاش المنتصر بعد موت أبيه ستة أشهر ، وتوفى مسموماً وهو فى الخامسة والعشرين من عمره أو دونها ، وهى سن غير معقولة . وكان الرجل معظم الوقت مكتئباً بسبب وفاة أبيه ، ولا يمكن أن يقال : إنه كان يحكم ، إنما هو كان صنيعة فى أيدى الأتراك ، وكان كثير البكاء .

وعندما نصل إلى خلافة المستعين الذى تولى فى ١٤ من ربيع الآخر سنة ٢٤٨هـ / ٨٦٢م نجد الخلافة قد أصبحت شيئاً غير معقول ، فأنكرها الناس وقاموا على الخليفة عندما قُتِلَ فى حرب الروم عَدَدٌ من المسلمين على رأسهم عمر بن عبيد الله الأقطع ، وعلى بن يحيى الأرمنى ، وكانا نابين من أنياب المسلمين ، شديداً بأسهما ، عظيماً غناؤهما عنهم فى الثغور التى هما بها ، وشق ذلك عليهم (على العامة) وعظم مقتلهما فى صدورهم على قرب مقتل أحدهما من مقتل الآخر ، ومع ما لحقهم من الأتراك من مقتل المتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين وقتلهم من أرادوا قتله من الخلفاء من غير رجوع منهم إلى ديانة ولا نظر للمسلمين ، فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير ، وانضم إليهم الأبناء والشاكرية تظهر أنها تطلب الأرزاق ، وذلك أول يوم فى صفر ، ففتحوا سجن نصر بن مالك وأخرجوا من فيه وفى القنصرة بباب الجسر ، وكان فيها جماعة - فيما ذكر - من رفوع (أى نواح) خراسان والصعاليك من أهل الجبال والمحمرة وغيرهم ، وقطعوا أحد الجسرين وخربوا الآخر بالنار ، وانحدرت سفنه ، وانتهبت ديوان قصص المحبسين ، وقطعت الدفاتر وألقيت فى الماء ، وانتهبوا دار بشر وإبراهيم بن هارون النصرانيين كاتبى محمد بن عبد الله ، وذلك كله بالجانب الشرقى من بغداد . (الطبرى ٩/ ٢٤٩) وهذا الخبر يدل على

شعور العامة بالخوف وإحساسهم بأنه لا توجد حكومة هناك تحميهم أو تحمى الإسلام ، وهذا أسوأ ما يمكن أن يصل إليه أمر الحكومة .

وفى صفر ٢٥٢هـ / ٨٦٦م بدأت معركة أهل بغداد والعرب مع الأتراك وحلفائهم من المغاربة ، وقد تولى ذلك رجل يسمى محمد بن عبد الله ، فأحسن تسليح جنده وسار معه الفقهاء والقضاة ، فدعا الأتراك إلى التوقف عن التمادى فى الطغيان واللجاج والعصيان وبعث لهم الأمان ، واشترط أن يكون أبو عبد الله المعتز خليفة بعد المستعين فإن قبلوا وإلا باكرهم بالقتال، وقد تجمعت معه الألوف من أهل بغداد وجموع من الناس وأرهبوا الأتراك والمغاربة فلم يستطيعوا قبالتهم ، ولكن الأتراك مع ذلك ثبتوا متمسكين بامتيازاتهم ، وقد سكت الناس عن قتالهم يومًا ، فلما أصروا على امتيازاتهم نازلهم الناس وقتلوا منهم واستمر القتال .

وكان عدد القتلى والجرحى من الجانبين عظيماً ، وشيئاً فشيئاً بدأ الناس ينتصرون على الأتراك ، ثم دارت معركة مع أربعة آلاف تركى فانهزموا وقتل منهم فى الموقعة ألفان ، ومن ذلك الحين لم يعد الأتراك إلى الرياسة مرة أخرى ، ولكننا لكى نصل إلى هذه النتيجة ينبغى أن نقرأ أكثر من عشرين صفحة

من الطبرى كلها تفاصيل صغيرة وقليلة الأهمية ، وهى حافلة بأسماء أعلام غريبة لا يدرى الإنسان ماذا يفعل بها . والحق أننا نعجب بالطبرى على صبره فى رواية هذه الأحداث ، ولكن المعركة مع الأتراك والمغاربة لم تنته فى يوم أو شهر ، وإنما هى استمرت شهوراً ، ولكن محمد بن عبد الله بن طاهر بن الحسين تولاها ببسالة ومهارة وكسر الأتراك وقتل منهم ومن المغاربة مرة بعد أخرى .

ولكن ذلك القتال المتصل بين الأتراك والمغاربة والشاكرية وأنصارهم من ناحية ورجال الخليفة المستعين من ناحية أخيه استمر حتى نهاية خلافة المستعين فى ذى الحجة سنة ٢٥١هـ بل استمرت الفوضى بعد ذلك بعد أن بويع بالخلافة للمعتز .

وتستمر هذه الأخبار التى توقع فى النفس الملل تجعل الإنسان يحس أن التاريخ الإسلامى فقد شخصيته ورسالته ؛ لأن التاريخ إذا لم تكن له غاية أو روح أصبح حديثاً مكرراً معاداً لا معنى له ، وهذا هو الذى أنتهى إليه أنا عندما أقرأ أمثال هذه الأخبار الطويلة المتشابهة المملة فى مراجعنا .

والحق أن تاريخنا فقد شخصيته وروحه منذ أصبح مجرد نزاع على السلطان فى ذاته ، لا شىء إذا لم تكن له رسالة ، والإسلام هو رسالة التاريخ الإسلامى ، وفى عالمنا اليوم أغنياء

يملكون الملايين ، ولكن حياتهم مملة ولا معنى لها حتى أن بعضهم يقتل نفسه ؛ ولهذا فإنني رأيت أن أقف عند هذا الحد من تاريخ بني أمية وبني العباس ، ويكفيني أنني صورت للقارئ خواء تاريخنا وفراغه مع أنه في الحقيقة ينبغي أن يكون أغنى التاريخ ؛ لأنه تاريخ الإسلام ، والإسلام كله تقدم وخير .

وليس أدل على ذلك من خبر الأطروشي ، وهو الحسن بن محمد بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، فهذا الرجل العلوى رأى أنه لا معنى لأن ينافس في طلب الدولة الإسلامية ويحاول انتزاعها من بنى العباس ، ففعل ما فعله ابن عمه إدريس بن محمد بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ، عندما ذهب إلى بلاد البربر وأنشأ الدولة الإدريسية خارج نطاق الدولة العباسية وخارج نطاق دولة بنى أمية في الأندلس أيضاً ، وأخبار هذا الأطروشي قليلة ؛ لأن مؤرخينا يشغلون في العادة بأخبار نزاع الترك والمغاربة والأشروستية على الخلافة ، وهو نزاع مرير وفارغ وبلا معنى ، ولكن الأطروشي تنبه إلى أن بنى العباس أهملوا في نشر الإسلام في نواحي طبرستان والبلاد الواسعة الواقعة بين نهر جيحون وبحر قزوين ، هناك بلاد واسعة دون إسلام ، مع أنها في صميم بلد الإسلام ، فذهب في سنة ٣٠١هـ / ٩١٣م إلى بلاد الديلم والجبل ، وهي التي نسميها اليوم بلاد خوارزم ، وهي بلاد

واسعة وخصبة وغنية يسكنها ملايين الناس ، فرأى أن ينشر الإسلام فيها ؛ لأنهم كانوا أهل جاهلية ، بل كان فيهم مجوس يعبدون النار ، فاجتهد فى نشر الإسلام فى هذه النواحى ، وأنشأ دولة كبيرة تعتبر من أعاظم دول الإسلام ، ولا تقارن إلا بالدولة الإدريسية .وأخبار هذه الدولة قليلة ؛ لأنها قامت فى بلاد واسعة ، ولكن ليس فيها شعب قائم بنفسه يؤرخ لبلاده .

قال المسعودى فى مروج الذهب (٤/ ٣٧٣) : إنها مواضع من بلاد الجبل والديلم فى جبال شاهقة وقلاع وأودية ومواضع خشنة على الشرك إلى هذه الغابة ، وبنى فى بلادهم مساجد ، وقد كان للمسلمين بإزائهم ثغور مثل قزوين وشالوس وغيرهما من بلاد طبرستان ، وقد كان بمدينة شالوس حصن منيع وبنيان عظيم بنته ملوك فارس يسكن فيه الرجال المرابطون بإزاء الديلم .

ثم جاء الإسلام فكان كذلك إلى أن هدده الأطروشى . وكان بين الأطروشى والحسن بن القاسم الحسنى الداعى حروب على بلاد طبرستان ، فكانت بينهم سجالاً ، وكان الحسن بن القاسم الحسنى الداعى قد نزل الرى ـ وذلك سنة ٣١٧هـ / ٩٢٩م ـ فى جيوش كثيرة من الجبل والديلم ، ومعه « ما كان بن كالى » الديلمى أحد فتاك الديلم ووجوهها ، فأخرج عساكر نصر بن

أحمد بن إسماعيل بن أحمد صاحبه عنها ، واستولى عليها وعلى قزوين وزيخـــان وقم وأبهر وغيــر ذلك مما اتصل بالرى ، فكتب المقتدر إلى نصر بن أحمد بن إسماعيل بن أحمد صاحب خراسان ينكر عليه ذلك ، ويـقول : إنى ضمنتك المال والدم ، فـاهملت أمر الرعية وأضعـفتها وأهملت البلد حتى دخلته المبـعضة ، وألزمه إخراجهم عنه ، فـوقع اختيار نصر صاحب خـراسان على اتفاق رجل من أصـحـابه من الجـبل يقـال لواحـد منهـما أسـفـار بن شـيرويه ، وأخـرج معـه ابن المحتـاج الجـبلى فيـمن معـه من الجيوش إلى حـدود الرى ، فكانت الموقعة بين شيـرويه الجبلى وبـين « ما كـان بن كالى » الديـلمى فاسـتأمـن أكثـر أصـحاب «مـا كـان بن كـالى » الديـلمى وقـواده مـثل مـشـيـر وتالجين وسليـمـان بن شـركلة الإشكرى ومـراد الأشكرى وفـشـونة بن أومرك فى آخرين من قـواد الجبل ، فحمل عليـهم « ما كان » فى نفر من الأتراك ، فولـى « ما كان » ودخل بلاد طبرستان ، وانهزم الداعى بين يديه و« مـا كان » على حـاميـته ، فلحـقتـه خيـول خراسان والجـبل والديلم والأتراك فيهم « أسفـار بن شيرويه » ومضى « مـا كان » لكثرة الجـيوش وانحـاز الداعى ، وقد لحق بقرب « آمل » قصـبة بلاد طبرسـتـان إلى طاحونة هناك ، هنالك وقـد تخلـى عنه من كـان معـه من الأنصـار فقتل هناك ، ولحق « مـا كان » بالديلم ، واسـتولى أسـفـار بن شيـرويه على بلاد

طبرستان وجرجان وقزوين وزيخان وأبهر وقم وهمذان والكرخ « الكرج أيضاً » لصاحب خراسان ، واستوثقت له الأمور ، وعظمت جيوشه وكثرت ، ودعا أعوانه وتجبر وشقى ، وكان لا يدين عمله الإسلام ، وعصى صاحب خراسان وخالف عليه ، وأراد أن يعقد التاج على رأسه وينصب بالرى سريراً من ذهب للملك ، ويتملك على ما فى يديه مما قد ذكرنا من البلاد ويحارب السلطان وصاحب خراسان . فسير الحضور هارون ابن غريب فى الحال نحو قزوين فكانت له معه حروب ، وانكشف هارون وقتل من أصحابه خلق كثير ؛ وذلك بباب قزوين .. ! المسعودى ، مروج الذهب ٤ / ٣٧٤ ـ ٣٧٥ ويكفى هذا القدر من ذلك الخبر الهام ؛ لأنه طويل ، وهو مثال هام من أخبار هامة ورئيسية ، ونحن لا نعرف عنها شيئاً ؛ لأن الحقيقة أننا لا نعرف الكثير من حقائق تاريخ الإسلام ، فهذا تاريخ دولة إسلامية كبرى أدخلت فى الإسلام ملايين البشر ومساحة ضخمة من هذه الأرض ، وقد أنشأها وقام عليها رجل واحد من الطالبيين وهو الأطروشى هذا . وقد لقب بالأطروشى لأنه كان قليل السمع ، أى أنه كان يعانى من ضعف سمعه ، ولكنه مع هذا استطاع أن يكمل مساحة الإسلام من هذه الناحية التى يقع فيها اليوم جزء كبير من بلاد ما وراء النهر وروسيا الإسلامية . فهذه بلاد خوارزم وطبرستان . بهذه المناسبة أحب أن أنبه إلى

أن الإسـلام باق فى تلك البـلاد إلـى يومنا هذا ؛ لأن الإسـلام إذا دخل بلداً لم يخرج منه أبداً ، الإسبان والكاثوليك لكى يتخلصوا من المسلمين أبادوهم بصورة بشعة ، وهذه فضيحة من فضائح التـاريخ ، ومازال البـشر يذكـرونها إلى اليـوم للإسبـان أو قل للكنيـسة الكـاثوليكية ؛ لأن تلك الـكنيسـة هى ـ دون شك ـ ألد أعداء الإسلام ، وما زالت ؛ لأنها زائفة ـ والإسلام حقيقة ـ ولكنه زيف مرتب منظم ، أما نحن فعلى الرغم من أننا على الحق فإننا فى فـوضى دائماً ، وفى اليـوم الذى نتخلص فـيه من الفـوضى سنسود الدنيـا ، أقصد أن الإسـلام دين الله ، ولابد أن يعم الدنيا مهما كانت العقبات فى طريقه .

وأقف هنا بهذه الدراسـة ، ويكفى أننى لَفَتُّ أنظار القراء إلى أن كتبنا الماضية فيهـا الكثير مما يسىء إلينا ، ولابد من التنبيه إلى ذلك ـ لا أقـصـد بذلك أن نتـدخل فى النـصـوص ؛ فـإن النصـوص تراث ، والتـراث لا يمس ـ ولكـن يكفى أن ننبـه إلى مواضع الإساءة ، ولابد أن نشير هنا إلى أن كتابنا الماضين كانوا موضع إعجاب ، فقد حفظوا فى أذهانهم هذه الأخبار الكثيرة قبل أن يدونوها ، ونحن اليوم لدينا الدفاتر والكراسات والبطاقات ؛ لأن الورق رخيص ومـوجود فى كل مكان . أمـا فى الماضى فكان الورق غالياً ـ لم يكن موجوداً ـ وبعض مؤلفينا كانوا يصنعون الورق والحبر فى بيوتهم ، وكان الواحد منهم يجمع مواد صنع

الورق ويوقد عليها النار شهوراً حتى تنطبخ وتصير عجينة ورق ، ثم يسطرونها على صفحات خشبية وينتظرون حتى تجف ، ثم يأخذونها ويكتبون فيها . وقد ألف بعضهم كتباً فى طرق صناعة الورق والحبر . وكان بودى أن أنشر واحداً منها ، ولكن عاقنى عن ذلك كثرة المخطوطات للنص الواحد . وكان من المستحيل علىّ جمع كل مخطوطات النص الواحد حتى يكون النشر علميّاً .

ويكفى أن تنظر إلى كتاب مثل مروج الذهب الذى تقع نسخته المطبوعة فى أربعة أجزاء تضم ألفاً وخمسمائة صفحة على وجه التقريب . وهذا الكتاب يضم من شتى المعلومات ما يحار له العقل ، فإن فى كل صفحة تقريباً خبراً مستقلاً ، والرجل ينتقل من خبر إلى خبر بسهولة ويسر ، وأنت لا تمل القراءة فيه أبداً ؛ فهو متنوع ، وهو جميل وطريف ، ولابد أن الله سبحانه وتعالى ـ قد يسر له ذلك لحكمة عنده . فهو ـ سبحانه ـ يريد أن نعلم ذلك كله حتي ننتفع به عندما تجيء ساعة نشر الإسلام فى الأرض كلها ، ولابد من ذلك ؛ لأن الله ـ سبحانه ـ يريده .

ونحن لدينا عن تاريخ الإسلام أربعة أصول قديمة هى على التوالى : تاريخ الطبرى ، ثم اليعقوبى ، ثم ابن الاثير ، وأبى

الفدا ، هذا عدا ما كتبه ابن خلدون ـ وهو عمدة مؤرخينا ـ وكان بعض الناس يقولون : إن ابن خلدون وضع فى مقدمته قواعد لم يطبقها فى تاريخه ، وهذا غير صحيح ، والسبب فى ذلك الخطأ هو أن أحداً لم يقرأ تاريخ ابن خلدون قراءة مدققة متفحصة ، وأنا ـ شخصيّا قرأت تاريخ ابن خلدون كله ، فما عرفت مؤرخاً إسلاميّاً أرخ للرومان والروم والبيزنطيين ومذاهب اليهودية ثم المسيحية جميعاً وتاريخ الفرس ، أى أنه المؤرخ العربى الوحيد الذى كتب التاريخ القديم كتابة صحيحة. أما تاريخه للمغرب والبربر وبنى هلال وقبائلهم فشىء عجيب يدل على ذاكرة نادرة فعلاً .

أما الطبرى فهو عجيبة ، والمعلومات التى يسوقها فى تاريخه وتفسيره للقرآن شىء له العجب ، ونحن لا نطيق الصبر على قراءة كل هذه التفاصيل ، فما بالك بمن حفظها فى ذهنه أولاً ثم كتبها بهذه الدقة وذلك الشمول . وأنا قرأت الطبرى، ولكن ينبغى أن أقرر أننا نحتاج إلى دراسة النص ، فهناك العشرات بل المئات من المصطلحات الإدارية والعسكرية والفنية نحن لا نعرفها ، ومن أسف أنه لم يبق لى من أيام العمر ما أنفقه فى التعرف على معانى هذه المصطلحات ، ولا أرى بين الشباب الجديد من أتصور أنه يصبر على مثل هذا البحث . على أى حال أنا أنبه ، وعليكم أن تنظروا فى التنفيذ .

أما ابن الأثير فمؤرخ عـجيب . إنه مؤرخ صحفى الروم . أى أنه مغرم بالبحث عن الأخبار وإيرادها ، وهو أحياناً يوجز كلام الطبـرى ، ولكنه أصيل فى أحـيان كـثيرة ، وتاريخـه الذى بين أيدينا ينتهى فى أواخـر القرن السادس الهجـرى . وهو أساسى ورئيسي بالنسبة للعصور القريبة من عصره .

أما أبو الفدا صاحب « المختصر فى أخـبار البشر » فهو أمير أيوبى مؤرخ ، وهو يعترف بأنه أحياناً يوجز تاريخ ابن الأثير ، ولكنه أصـيل فى أحيان كـثيـرة أخرى ، وإذا نحن تركنا جـانباً الجـزء الأول الخـاص بتحـديد السـنين والإحصـاءات لحـوادث التاريخ الـقديم وأعمـار الأنبيـاء فإن البـاقى عظيم القيـمة ، هو يصل بنا إلى أوائل القـرن السابع الهجـرى . ويكفى لكى نعرف فضله أن نقول : إن أهل الغرب كانوا يقـولون أحياناً : إن محمداً ﷺ أسطورة ، وحـاشا لله أن يكون كذلك ، وهذا على مثال ما يقال عندهم من أن السيد المسيح أسطورة ، فلما قـرأ أحد المستشرقين السـيرة الموجـزة ـ كـما أوردها أبو الفـدا فى تاريخـه ـ تبين أن رسول الله ﷺ شخصـية تاريخية حقّا ، وأنه قـام برسالته على النحو الذى يقصه المسلمون .

★ ★ ★